

لماذا نعيد النظر؟

بقلم مطاع صفدي

القاء ظل الواقع عليه ، وفي مد سلطنة المراقبة ، مراقبة المبدأ النظري ، على منجزات الواقع .

ومن هنا كانت الثورة في حقيقتها شيئا لا يتحقق كله ، ولا يوجد كله ، بصورة جزئية او شاملة . كان لا بد اذن من تناولها عبر تغييراتها وليس من خلال ثوابتها . فالنظرة اليها هي نظرة جدلية . والجسد ، ليس في الفكر وحده ، بل في العلاقة الحية بين بنيات واقعية تلقاء بعضها بعضا ، وبين هذه البنيات والمنعكسات الفكرية التي يستنتقها الوعي في حال شموله لجماعية الجدل ، وان لم تكن له تلك الجماعية النهائية الثورة هي الجدل ، وليس الانقطاع . وان ذلك يبدو متناقضا مع ما كنا اسلفنا من تعريف سابق للثورة . والواقع ان اعتبار الثورة مجرد انقطاع ، يوقنا في نظرة جزئية مبتسرة . لان الانقطاع الذي تحدثه الثورة في سياق البنى الجماعية للواقع المثار عليه ، انما هو اولا انقطاع نسبي ، محدد هكذا : انقطاع بالنسبة لهذه البنى . والانقطاع لن يدوم لانه هنيهة ، ما ان تحدث حتى يؤدي الى اتصال مفاكس . انه اتصال يريد ان يقيم الاسس البديلة عن الاسس المنهارة .

وإذا تذكرنا ان الثورة الواقعية لا يمكن ان تحدث ككل ، كما لا يمكن ان تحقق الاغراض التي قامت من اجلها ، كما تصورها الوعي قبل التحقق الثوري ، وان الثورة سوف تتحول الى ثورات ، او بالاحرى حركات متباينة في اخاذيد الواقع ، وان هذه الحركات ذاتها سوف تأخذ محاور مختلفة ، كما سيكون لها مواقف جزئية متعددة ، تتفق اولا مع الموقف الاساسي المتصور . اذا تذكرنا كل ذلك ووعينا ، كان لدينا اذن ، بدلا عن هذا التبسيط الاولي المتضمن في تعريف الثورة كانقطاع او كماكس للظهور ، كان لدينا مفهوم اخر أكثر تعقيدا واشمل لحقيقة الشروع الثوري . انه الشروع الذي هو جدل .

ان الجدل هو الذي يثبت هذا الخط : وهو عدم كفاية الثورة بذاتها ولذاتها ، على أن يفهم عدم الكفاية هذا أنه شرط حقيقي أولي لواقعية الثورة . اذ ان الثورة حدث لا يكون كله . وهو حدث تنشق عنه احدثات اخرى ، ليس في المدى الزمني ، ولكن في البرهة ذاتها التي تستقطب اول بوادر الثورة كعمل . ولعل من أبرز العناصر الاساسية التي تظل تحتاجها الثورة التمشيخ المستمر لما تتوجه اليه الثورة . أي ان الثورة ليست شيئا منفصلا او خارجيا عن نظام العقبات التي تنبثق الثورة من اجل تهديمها . تنبثق في حجر هذه العقبات ، بل تبدو كالضرورة العليا لضرورات هذه العقبات ، وان كانت ضرورة سوف تنسف جذور الضرورات الاخرى .

ان عملية التمشيخ لتناقض الثورة لا تتوار الا بفعل التناقضات الداخلية التي تقع فيها الثورة نفسها وهي في سياق الانجاز . ولعل التناقضات الداخلية ليست أقل أهمية او خطرا من التناقض الخارجية . بل ان حيوية الحركة الجدلية للثورة لا تقاس الا بمدى ما تكشف عن تناقضاتها الخاصة ، التي كانت في حال الكمون قبل الشروع ، ثم ما لبثت ان تبلورت بفعل الصراع الخارجي وهو يصبح تدريجيا صراعا داخليا ، يزيد من مسؤولية الانجاز ، ويضع العمل الثوري أشد فاشد تلقاء مصيره الحقيقي .

فالرديف الدائم في جدلية الصراع للثورة هو العلاقات الاخرى

كيف يمكن ان توضع المسألة الثورية مرة اخرى ؟ وما هي الحاجات الاساسية التي تدفع الى مثل هذا الوضع ؟ وهل هناك فائدة حقيقية ، بالنسبة للوعي من جهة وللثورة من جهة ثانية ، في مواجهة المسألة بصورة جذرية شاملة ؟

كل هذه الاسئلة في الواقع لم تكن لتثار لولا أن تطور الاحداث خلقت توترا جديدا يؤذن بزعة كثير من ركائز الوثوقية القديمة التي افادت ضمن ظروف تاريخية معينة ، ويشير في الوقت ذاته الى ضرورة النظر من مثل هذه الوثوقية ، والبحث عن جماعيات فكرية جديدة تناظر جماعيات الحوادث وتنفذ الى صميم حركتها ، وتؤلف وايساها مظهرا حيا كليا لواقع التحقق العملي الذي يحيط بنا من كل جانب .

ولكن ما هي الثورة اولا ؟ ايكون هذا السؤال نظريا خالصا ؟ كلا ، فان حاجة اساسية تدفعنا في كل مرحلة تجتازها الثورة ، الى ان نطرح هذا السؤال مجددا . هكذا نحن ، فاننا نجد انفسنا دائما محتاجين الى التوقف . والتوقف خطوة ساكنة في مجرى الاحداث . وهي خطوة ضرورية . واذا اخذت من خلال السياق الكلي ، بدت انها متحركة كاية خطوة اخرى .

ان التوقف قد يلي انجازا ما . ولا يشترط في هذا الانجاز أن يأتي محققا لكل اهدافه . فقد يكون ناقصا او جزئيا ، بل قد يكون فاشلا احيانا . ولعل التوقف يوحي بعدم الكمال السابق فيما أنجز ، ويحيى معبرا عن فترة فلق او غموض ، تلتبس فيها الاهداف القديمة ، بالوسائل العملية التي أثبتت التجربة عدم توازنها مع تلك الاهداف قليلا او كثيرا . ولنرجى الان بحث هذه النقطة - التوقف - وتابع توعيتنا لعنى السؤال السابق : ما هي الثورة .

ان الاجابة النظرية الخالصة تقدم لنا مفهوما شكليا - بالمعنى الكنتي - . فقد نستطيع ان نتفق ان الثورة هي انقطاع التطور . وانها المفهوم العاكس لعنى التقدم الطبيعي . واذا تعمقنا أكثر ، قيل لنا ان الثورة هي المرحلة التي يكون فيها الوعي قد اكتسب شعورا بذاته ، دون أن تستطيع المؤسسات القائمة بوسائلها المعتادة تحقيق مضمون هذا الشعور . ولذلك فان الانقطاع لا بد ان يقع بين الوعي وبين مؤسسات الواقع . فيتحول هذا الوعي الى قوى فاعلة ، ما أن تصطدم بمؤسسات الواقع ، حتى تجسمها امامها كعقبات . وعندئذ يتدخل العنف بصورته المادية او المعنوية .

غير ان اشكلكة ان هذا الاصطدام بين القوى الثائرة وبين عقباتها الواقعية ، لا يحدث على هذا الشكل البسيط الذي تصوره عادة النظرية الايدولوجية . وهذا ما يسبب قيام الصراع عادة حتى بين القوى الثائرة نفسها . لان الاصطدام بهذه المؤسسات كثيرا ما يكشف بنيات جزئية وتفاصيل ذات مناعات مفاجئة ، لم تكن قد تنبأت بها النظرية الايدولوجية . وعندئذ لا بد ان تحدث ارتكاسات ضرورية نحو المبادئ الاساسية التي انطلقت منها هذه النظرية .

لكن عملية الارتكاس ذاتها تحمل تغييرات جديدة لمضمون هذه المبادئ . اذ انها ستاتيها محملة بعنف التجربة . هذه التجربة التي مهما كانت منسجمة في انطلاقها مع المبدأ النظري ، فانها في حال عودتها اليه ستكون شبه غريبة عنه ، ان لم تشرع مباشرة في التحوير والحوار ، في

وهذه العلاقة ، الموت والبحث ، تصفي طابعا وجوديا على الجدل ، وتفر به أكثر من الصفة الانسانية ، بعد أن تفصله عن الاطلاقية والمادية .

والآن ، بعد هذا الاستطراد النظري الذي كان لا بد منه ، يمكننا أن نفهم موقف إعادة النظر بالنسبة للبحث ذاته . فالبحث في السياق الجدلي ، لا يعني سوى محاولة البحث ثانياً عن الجذور . وإعادة النظر هي الصورة النقدية الشمولية التي تنطلق منها عملية البحث عن الجذور . والاطار الجدلي الذي يشمل هذه العملية يطلق عليه اسم الثورة . اننا من داخل الثورة نعيد النظر في الثورة . ولكن بدلا من أن نقد الثورة اطلاقا أو باعتبارها مبدأ ، فإننا نوجه تقييمنا الى - هذه - الثورة بالذات ، أي جماعية التفيرات التي قد تم حدوثها في مستويات تاريخية معينة سياسية واجتماعية وثقافية . ولا شك ان اعادة النظر هي التي تطرح ثانية المسألة الثورية من خلال ما تحقق منها ، ولا تعمل ذلك الا لان علائق جديدة قد انبثقت عن جماعية الثورة السابقة أو المرحلة من الثورة التي تمت . وهذه العلائق سوف تلقي ظلا قيميا آخر على الجماعية السابقة . ولذلك فان عملية تهديم الجذور سوف تتم باسم تأصيل جذور أخرى ، تفوس في بنية الواقع بقدر ما ترتفع مؤسسات ثورية جديدة .

* *

وعلى ضوء ما تقدم يمكننا الآن ان نصف المرحلة الحاضرة من جماعية الثورة العربية المعاصرة لنا ، بأنها مرحلة توقف ، لأنها تحتاج الى إعادة النظر ، على ان نعتبر هذه الاعادة للنظر جزءا أساسيا من وعي الثورية لذاتها . بل ان من اكبر احداثها حقا ان تستطيع عكس صفحات من التوعية لامن التبرير . وفرق أساسي بين التوعية والتبرير .

فالتوعية هي استخلاص المعاني خلال المنظومات الجدلية ، لجعل هذه المنظومات تحوز على ادراك لذاتها ، يبيح لها النظرة الشمولية التي تتضمن تقييما معادلا للوقائع كما هي . واما التبرير فهو يفترض قيام الواقعة أولا ثم حصرها ضمن إطار من العقولوية والتقييم الإيجابي ، دون أن تكون هي في ذاتها حاصلة على مثل هذه العقولوية وهذا التقييم . وكثيرا ما ينصب التبرير على ما هو خطأ لإبرازه بثوب الصواب ، أو يتناول الانحراف ليجمعه مقبولا ، وقادرا على ان يأخذ مظهر الاستقامة . أو قد يتعلق بمظاهر كاذبة مزيفة ، ليجمع منها هي المظاهر الاصيلية . وهذا كله مما قد يرافق الجدلية الفكرية ، وهي في سعيها الى موازنة الجدلية الواقعية وانارتها من داخل . وعندئذ لا بد ان تهبط الثورية كثيرا من طاقتها الاصيلية ، وتستبدل تدريجيا منطلق المجاوزة بمنطق المساومة ، أي منطق القبول للواقع تحت ستار الانقراض عليه .

فالتبرير اذن يكاد يكون كله فعلا ذهنيا مزيفا اذ انه غير قادر في الاصل على اكتشاف الخطأ أو الصواب في التحقق الثوري . بينما نرى ان التوعية تفترض اصلا امكان الانحراف والخطأ بنفس نسبة الصحة ، ان لم تكن أعلى . فتسمى التوعية الى كشف كل من الجانبين ، الاصيل والمزيف ، بنفس الدرجة من الوضوح والمواجهة المباشرة .

ولكن ينبغي أن نشير الى ان هذه التوعية ليست في الاساس عملية عقلية محايدة . انها وهي تنبثق عن حيوية الحركة الجدلية للثورة ، لا يمكنها الا ان تلتزم خطها الاصيل . ومن هنا تنقلب هذه التوعية الى نوع من المقايسة بين القيم التي تطرحها الثورة ، وبين المنجزات التي تحققت باسم هذه القيم . وعندئذ يمكن تسمية هذه المقايسة بالمنطق الثوري ، او المنطق الذي يخص هذه الثورة دون سواها .

وتلك هي مشكلة جديدة تقترضا ، فهل هناك منطق ثوري واحد ، أم هناك أنواع من المنطق الثوري ، بحيث نجد كل ثورة منطقها الذاتي ، تقيس به فعاليتها ، دون ان تعبا بإمكانية انطباقه على ثورات أخرى ؟

فالتبرير اذن يكاد يكون كله فعلا ذهنيا مزيفا اذ انه غير قادر في الاصل على اكتشاف الخطأ أو الصواب في التحقق الثوري . بينما نرى ان التوعية تفترض اصلا امكان الانحراف والخطأ بنفس نسبة الصحة ، ان لم تكن أعلى . فتسمى التوعية الى كشف كل من الجانبين الاصيل والمزيف ، بنفس الدرجة من الوضوح والمواجهة المباشرة .

التي تقاوم انبثاق الثورة من طبيعة هذه العلائق ذاتها . ولكن المقاومة لا تنهار كلها . قد تنهار ولكنها لا تنعدم . وانما تنفجر طبيعتها . والمسافة التي تفصل بين كل من الثورة والعلاقات المقاومة ، لا تلبث ان تتناقص ، وتتداخل حدود الطرفين المتنازعين . بل قد تتبادل هذه الحدود ظلال بعضها بعضا ، او تتفاعل خصائصها . وفي مثل هذا المستوى يصعب الفصل حقا فيما هو ثوري ، وفيما هو غير ثوري . ولذلك لا بد من الاعتراف بوجود مستوى واقعي جديد ، لم يعد ممكنا فهمه بالمعطيات الثورية السابقة . كما لم يعد التغلب عليه بالوسائل الاولى ، ممكنا ايضا . وهذا المستوى هو الذي يتطلب طرحا جديدا لمسألة الثورة كلها . هذا الذي يتطلب موقف التوقف الذي ينضمن هو ذاته فعالية نظرية جديدة يمكن تحديدها بانها - إعادة نظر - .

لننقل اذن ان من طبيعة الحركة الجدلية أن يكون هناك توقف . وليس شرطا أن يتولد عن التوقف ذاته حركة جديدة . فالتوقف يظل له اعتبار غير سكوني اذا ما نسبناه الى السياق الجدلي ككل . واذا ما نشأ عنه تحرك جزئي اخر ، فهو لانه ليس توفقا مطلقا . الا اننا اذا ما نظرنا الى تاريخ الجدل ذاته وجدنا انه قد يتحدد بمجموعات جدلية خاصة ، كل منها تنحل الى مجموعات جدلية اصغر . ولكننا لا نستطيع أبدا ان نصل في نهاية التحليل الى مجرد اطراف لا تدخل ضمن علائق جدلية مهما كانت بسيطة وأولية . ففي جذر الجدلية لا توجد الا جدلية . واذا كان هيجل قد أثبت ذلك في حدود الافكار ، فان ماركس حاول ان يثبتها في مستوى العلائق التاريخية الاجتماعية ضمن المؤسسات المادية . وحاول سارتر أخيرا (في كتابه نقد العقل الجدلي خاصة) ان يركب من المستويين السابقين ، مستوى جدلية الافكار ، ومستوى جدلية العلائق المشخصة ، جدلية ثالثة ، تجمع بين الافكار والعلائق المشخصة ضمن فعالية جديدة هي قدرة الحرية الانسانية على توعية الجدل من داخل وجعله انسانيا لا اطلاقا متعاليا ، كما فعل هيجل ، ولا ماديا لا شخصا ، كما فعل ماركس (1)

ثم ان الموقف العربي لا بد ان ينظر الى المنهج الجدلي من زاوية خاصة ايضا . وهي انه اذا كان التاريخ عامة هو عبارة عن جماعية شاملة لجماعيات جدلية مختلفة ، فان الوحدة التي يتشخص من خلالها التاريخ وينجز جدلياته ، هي الحضارة ، على ان تفهم الحضارة من زاوية اتنولوجية . أي اننا لا ننظر الى منجزات الحضارة من ثقافة وسياسة وأخلاق على انها غاية في حد ذاتها ، كما يفعل المؤرخ العادي . كما اننا لا ننظر اليها كجموع من الرموز ، نستقرئ بواسطتها شخصية الاممة العميقة التي حملت هذه الرموز ورسمتها كاحداث . بل ان الحضارة بالمعنى الاتنولوجي الجدلي ايضا ، هي انها منظومة علائق جماعية حددت تقييما نوعيا ربط بين انسانية معينة بامة ، وبين عالم مرتبط بتاريخ شامل . وعلى ذلك فان الجماعة الجدلية ، بحسب هذه الزاوية ، قد اكتسبت تشخيصا جديدا زاد ارتباطها بخارطة العالم الواقعية من جهة ، كما زادها اقترابا أكثر من حرية الانسان باعتبارها حرية الخلق الحضاري ، على مستوى التكوين القومي المنفتح .

بعد ذلك فان الحركة الجدلية تأخذ ضمن الحضارة ايقاعا مشعبا بالصدى الذاتي الذي يؤلف نوعية العلاقة بين الامة والعالم عن طريق منجزات الحضارة نفسها .

ولكن الإيقاع وحده بدون الجدل قد يظل مفهوما شعريا أكثر منه وسيلة للفهم . وهكذا فان الجدل نفسه يتبلر بحركة ايقاعية ، تؤكد فواصل مهمة في جماعيات الانجاز الحضاري . انه قد يحدد مرحلة بالفتح وأخرى بالنضج وأخرى بالزوال ، وأخرى بالبعث . بل ان الجدل في مظهره الإيقاعي ، سوف يوضح علاقة الموت والبعث في صميم التكون الانساني وهو يلبس لبوسا حضاريا معيناً ، وينساق في تاريخ محدد .

(1) الكتاب الزمعه نشره يبحث في تطور الجدل عند هؤلاء المفكرين بصورة مفصلة ملقيا ضوءا على أهمية هذا النهج لفهم التاريخ والانسان ، ومدى ما يمكن ان يستفيد منه الفكر العربي لمواجهة واقعه الثوري وفهمه .

ولكن ينبغي ان نشير الى ان هذه النوعية ليست في الاساس عملية تعقيلية محايدة . انها وهي تنبثق عن حيوية الحركة الجدلية للثورة ، لا يمكنها الا ان تلتزم خطها الاصيل . ومن هنا تنقلب هذه النوعية الى نوع من المقايسة بين القيم التي تفرحها الثورة ، وبين المنجزات التي تحققت باسم هذه القيم . وعندئذ يمكن تسمية هذه المقايسة بالمنطق الثوري ، او المنطق الذي يخص هذه الثورة دون سواها .

وتلك هي مشكلة جديدة تعترضنا ، فهل هناك منطق ثوري واحد ، ام هناك انواع من المنطق الثوري ، بحيث نجد كل ثورة منطقها الذاتي ، تقيس به فعاليتها ، دون ان تهاب بامكانية انطباقه على ثورات اخرى ؟ ولكي نحل هذه المشكلة نرجع الى فكرة ان في التاريخ جماعات جدلية لها استقلالها النسبي ، ولكنها تدخل هي ذاتها كاطراف جديدة في جماعية كلية للتاريخ ككل . وهذا ما يسمح لنا ان نكتشف في كل جماعية عن اتجاهها الذاتي الخاص ، أي عن نوعية الحركة الجدلية التي تقوم بين صيغها الحركية الذاتية ، كما يسمح لنا ان نتصور وجود اتجاه شامل بالنسبة لسباق التاريخ كله . وبما ان جملة هذه الاتجاهات ، هي دائما في اطوار حركية لا يمكن ان تهدأ ، أي في صيغ من التحليلات والتركيبات الاعقد والاشمل والاخصب ، فان التناقض بينها هو من صميم كونها الوجودي ، بحيث لا يمكن اعتبار هذا التناقض بمثابة الخطأ او الانحراف الاخير الثابت .

ولذلك كانت لحظة اعادة النظر خلال السياق الثوري ، لحظة ضرورية من حيث انها محاولة متجددة من أجل تلمس الاتجاه ، أي ابراز المنطق الذاتي لحركية الثورة .

وقد نكون ، نحن العرب ، من أقل شعوب الحضارات قدرة على تفهم هذا الموقف . حتى تكاد أزماننا التاريخية ، تضي دون وعي منا . وكثيرا ما أخذت طابع الحدث الغفل ، الجهول المصدر والاسلوب . ولذلك اعترفت حضارتنا المنصرفة ، وما زلنا حتى في تصنيفتنا الحضارة تعترف بطقوس القدسية ، التي تنفي عن الاحداث أية مفقولة داخلية ، وتتركها لعامل خارجي ، اتخذ صفة القول الذي يفترس كل شيء ، باسم لا شيء ، ومن أجل لا شيء . فلقد صور الزمان بأنه ذو سياق تخريبي . وسمي بالدهر ، كما سمي الحدث الغفل من أية منطقية ، بالحدثان . وكل ذلك يعبر عن خضوع التاريخية العربية لأساة خارجية ، تمثل فيها الاقدار ، بصورة القوى المعجم الغاشمة ، غير المفهومة .

فلم يحمل الزمان قط أي اتجاه تقدمي أو بنائي . وذلك لارتباط أسس الوجود الحضاري بشوايت غيبية . فلم يكن للانسان تاريخ ، وانما كان له دور مقلد على مسرح سكوني . وبدلا من الحركة الأفقية التي توحي بالتغير بين آتات الماضي والحاضر والمستقبل ، كان هناك التقابل الشاقولي بين الحضيض ، عالم الارض ، والملا الأعلى ، عالم السماء . وبين هذين القطبين لم يكن ثمة تفاعل أو حوار ، بل انقطاع أصم . والانسان خاضع لحنمية هذين القطبين ، كما هو خاضع لحنمية المولد ، وحنمية الموت . وبين الطرفين لم يكن ثمة مجال لاية تاريخية فردية ، وبلاحرى ، لاية تاريخية حضارية أو وجودية شاملة .

غير أن الثورة المعاصرة هي بالدرجة الأولى ، تترجم عن احساس معاكس بالزمان . انها ثورية تاريخية ، تجد مكانها من حياة الانسان والامة والعصر .

ولهذا فان العوامل التي تؤثر في مجراها لم تعد غريبة عنها ، لم تعد تأتيها من جهة ما من الكون المظلم ، لم تعد بمثابة الضربات اللامعقولة التي تحمل كل عنصر من عناصر المادة الغفل من اية شخصية أو تاريخية .

والزمان لم يعد كارثي المنحى والانجاه ، لانه لم يعد مجرد حلقة دائرية تلتف حول ذاتها بين قاعدة الارض وذروة السماء ، كالولسوي المجذوب . لقد تجسد الزمان أخيرا لحة الاحداث ذاتها ، ليحول التوقيت من هدي الميلاد والموت ، الى تاريخية حقيقية ، تتعين بفعاليات الانسان ذاته . ومن صورة الزمان كعمر يحمل الكارثة لكل كائن حي ، تولدت التاريخية التي تتحرك ضمن جدلية . فلا بد أخيرا من ان يحل منطق

العلاقات ، بدلا من منطق الاقدار الخارجية . وتتقل بذلك الحركة من خبط عشواء شبه سحرية ، الى حجر العلاقات ذاتها ، وتصبح بذلك اتجاها باطنيا ، يمكن للوعي الانساني ان يكشف عنه وان يدركه .

ان حركة الجدل ذاتها في السياق التاريخي ، لا تتم بصورة تطويرية مستمرة . بل ان تفاعل النفاض الداخلية في جماعية جدلية ، لا بد ان يحول هذه الجماعية ، في لحظة نمو مرتقبة ، من هيئة معينة ، الى هيئة أخرى ، لا تختلف عنها مجرد اختلاف ، بل قد تناقضها في بنيتها الوجودية ، كما تناقض وحدة الجماعية طبيعة الحدود الداخلية في تكوينها . وهكذا فان الطفرة هي الصورة الاساسية لحركية الجماعيات الجدلية . ولكنها طفرة تتم من داخل ، وبذلك تحمل معقوليتها معها دائما . وهي معقولة ليست سكونية أبدا ، وذلك لانها معقولة موقنة لا بد ان يدب الاضطراب في وحدتها ، فتتسمر الى اطراف جديدة ، اتر اصطدامها بجماعية أخرى . اي ان هذه المعقولة ليست موقنة الا لانها لا تلبث حتى تفرز لا معقولة جديدة ، تتحول هي ذاتها الى جماعية جديدة ، أي لا تلبث حتى تشف عن معقولة موقنة أخرى .

فالتقدم بالمعنى التطوري الذي ساد تفكير القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر ، لا أساس له من الحقيقة ، الا اذا اعتبرنا التفورات البطيئة التي تنمو من خلالها حدود الجماعية قبل ان يبلغ التناقض بينها ذروتها ، اعتبرناها تقدما أو تطورا . غير ان هذا التطور في الحقيقة لن يفهم من البنية الكيفية للمعاصر أو الحد ، فينقلها الى بنية مختلفة . فمثلا ان ازدياد حرارة الماء بالتدريج لن يصيب تركيب الماء ذاته بأي تغير . اما عندما تبلغ هذه الحرارة درجة الفليان ، فان الماء يتحول بطبيعته الى مادة جديدة تماما هي البخار .

والواقع ان تاريخ جماعية جدلية ما ، ذو تاريخ التحولات هسهه التي اصابت الجماعيات الاصف داخل الجماعية الكلية التي هي موضوع البحث . فليست تلك التفورات البطيئة بالمقياس الصحيح ، ان لم تبلغ حالة التحول الجذرية . هذه الحالة من التحول اذا ما بحثنا عنها ضمن الفعاليات الكلية للجماعات الانسانية عبر التاريخ ، وفعنا في الحقيقة على فلسفة الثورة .

فالتاريخ اذن لا يزحف ولا ينمو ، ولكنه يقفز . وقفزاته هي التي تعطي مجراه المتجانس صفة اللاتجانس . فتبرز المصور . وما المصور الا مجموعة ملامح خاصة لمنظومات جدلية ، تختلف بالنوع والطبيعة عن نظيراتها في عصور أخرى . والقفزة في حقيقتها هي الثورة ، اذا ما فهمنا الثورة على انها ذلك التحول العميق من جماعية جدلية الى جماعية جدلية تالية .

وليس من الضروري ان تكون الثورات كلها ذات اتجاه تقدمي . بل قد توجد ثورة لتعكس ثورة أخرى . وبقدر ما تكون الثورة المعاكسة قوية الجذور ، بقدر ما تدفع الى مركب جديد من الثورتين . فيجاء هذا المركب ليحقق اهداف الثورة الاولى التقدمية - نسبية - ولكن باصالة وواقعية أكثر .

ومن هذه الزاوية ينبغي ان تفهم النكسة . فالنكسة هي الثورة المعاكسة . ولا تظهر هذه الثورة المعاكسة ، الا عندما ينخفض توتر الثورة الاولى ، وتميل الى نوع من الاستنقاع ، أي عندما تفقد استثمارها الذاتي . ولا تفقد هذا الاستثمار ، الا عندما تكف عن كشف عوائق أعرق ، مدفونة في أعماق الواقع الذي أخذت في الثورة عليه .

والحقيقة ان طبيعة كل نكسة ، أي هذه الثورة المعاكسة للثورة الاصلية ، ان تستفيد من جميع العوائق السابقة ، التي اكتفت الثورة الاصلمية بتخديدها دون القضاء عليها . فتنبعث الحياة ثانية في هذه العوائق ، وتنفض بكل تلك القوى المزيفة التي اتاحتها لها الثورة المعاكسة ، في سبيل ان تعاود ادوارها المنصرمة .

ان اصطدام الثورة الاصلية الاول لم يكن اصطداما على مستوى جماعيات الملاق السلبية ، كل على حدة ، لهذه العوائق . بل جابقتها

لماذا نعيد النظر

— تنمة المنشور على الصفحة ٧ —

كل جدلي متجانس . واما الثورة المعاكسة ، فانها سوف تعنى هذه الجماعيات بصورة منفصلة . ونحاول كل جماعية منفردة ، ان تصعد الى مستوى العقبة المطلقة . بمعنى انها سوف تحاول ان تفجر في ذاتها بقية قواها كلها ، وترمي بها دفعة واحدة الى الساحة . وعندئذ فان بقاء الثورة المعاكسة يصبح مرهونا بمنع عودة الثورة الاصلية . ولكن الثورة الاصلية لن تعود هي نفسها ، اي طبيعتها الاولى ، وامكانياتها ووسائلها التي حققت بها مباشرتها السابقة . فلا بد من تكون ثوري ذي تناظر عضوي تقريبا مع التركيبات العضوية للجماعيات التي تالتت منها مظاهر النكسة .

* *

نحن الان لن نتعرض الى تفاصيل هذه المفاهيم المكثفة . ولكننا نبدأ باحلال مشكلة (اعادة) النظر في مكانها من التوعية الثورية . ونسارع الى القول بان هذه التسمية (اعادة النظر) لا تفي بالمطلوب منها تماما . بل انها ستفقد كمصطلح ايدولوجي عن تادية المساني المترتبة عليها ، عندما نضعها في مكانها الحقيقي من البحث . غير اننا نكتفي الان ، في هذه المرحلة الموطئة للبحث ، بمناقشة المعاني العامة التي تنطوي عليها اعادة النظر ، بحيث تكون هذه المناقشة ممهدة في جملتها لتحليل المشكلات الايدولوجية الكبرى ، التي ستعرض لها .

تبين لنا من التعميمات السابقة ، ان اعادة النظر هي المحصلة الفكرية لبرهنة التوقف في حركة الثورة . والا فان برهنة التوقف هذه لن تؤدي الى حركة نشيطة اخرى . وستكون برهنة دائمة ، ان اعادة النظر ، تؤلف النهج المحايد الذي سيكشف عن تراكمات الانحراف الثوري في الجماعية السابقة التي تحققت كبنيات واقعية ، سياسية واقتصادية واجتماعية . فكان موقف اعادة النظر اذن ينطوي على تقييم ما . هذا التقييم يصطلح عليه في اللغات الايدولوجية بالنقد الذاتي . والحقيقة ان النقد الذاتي هو اقل ايعاء بالمشكلة من موقف اعادة النظر .

اذ ان النقد الذاتي تعبير مبسط يعني وضع سلوكية ما موضع المقايسة بين الخطأ والصواب . بينما نجد ان اعادة النظر ذات موضوع اوسع قد يتضمن جذور كل سلوكية ، لا سلوكية معينة . من هنا كان موقف اعادة النظر لحظة حاسمة في جماعية الثورة الكلية . لانها قد تتجاوز الاحداث ومقياسها الخاص ، الى التساؤل عن معنى الحدث عامة ، عن القيمة ، عن الاصل . وهذا هو جدوى اعادة النظر ، باعتبارها ليست صورة آنية عن مشكلة فكرية ما ، بل هي تكاد تصل الى طرح بديهيات العلاقات كلها من جديد . فالنقد الذاتي يفترض حالة من التناظر بين جماعيات محققة وبين مقياس سلوكي معين وواضح . بينما تستهدف اعادة النظر قيمة المقياس بالذات . وهي في حقيقتها لا تستهدف الا المقياس . لان الاحداث الثورية التي وقعت واصبحت جزءا من بنية الواقع نفسه ، يفترض وقوعها ذاته عن منحى معين حدثت بموجبه ، يؤلف الى حد ما صورة عن سلسلة القيم التي اوحى بتحقيق هذه الاحداث في منحى دون آخر . ثم ان النقد الذاتي ، يبقى عملية جزئية سطحية ، لانه قائم هو نفسه على نوع من الوثوقية العقائدية ، تناقض تماما حركة الفعل الثوري ، لان النقد الذاتي يطلب من اصحابه ان يسلموا اولا بقواعد الايدولوجية الاساسية التي يوجه اليها هذا الانتقاد . اي ان الانتقاد سوف يتقيد مباشرة بنوع من الوثوقية التي تفرض صحتها كمجموعة من البديهيات . بينما سعى موقف اعادة النظر الى مواجهة هذه القواعد ذاتها ، اي مواجهة الايدولوجية كهيكل ميداني ، وقد فقد قدسية الايمان الساذج به ، وراح يتطلب تعميلا بدلا من التعلق الطوبائي .

واما الوسط الحي المساعد على نمو اعادة النظر ، فانه وسط النكسة اكثر منه وسط النجاح . وذلك لان استمرار النجاح امر وهمي ، ان لم يكن وسيلة لخداع الذات . ومن هنا جاءت اهمية الاعتراف بالنكسة اولا . هذا الاعتراف الذي ينطوي على اقرار حاسم بضرورة التوقف من جهة ، وبضرورة العودة الى ظروف العقبات نفسها ، والكشف عن بنيات جديدة قد تشكلت وراء الصورة الاولى لهذه العقبات فسي مخطط المعركة الثورية ، من جهة اخرى .

ان موقف اعادة النظر هو اشارة الاعتراف بالنكسة وضرورة المراجعة الشاملة . وهو الصورة العقائدية الاصيلية التي تسمح لنفسها بمناقشة اية وثوقية للعقيدة القائمة . ومن العيب ان يصر الثوري على التمسك بوثوقية العقيدة باسم فضيلة سكونية عقيمة ، هي فضيلة التناظر الجامد بين جملة مثل عليا ، اثبت واقع الثورية مدى ما فيها من وهم ، وبين مخطط للعمل ، اثبت واقع الثورية ايضا عدم كفاءته وتناسبه مع نوعية العقبات التي تخص الواقع العربي دون غيره .

ليس من شك في ان موقف اعادة النظر يستفيد من لحظة التوقف في تقدم الثورية . انها اللحظة المناسبة وحدها كما يصبح الماضي جزءا حقيقيا في بناء المستقبل ، وليس عقبة في طريق نشوئه . ولذلك تجيء النكسة صورة اخرى عن الثورية ، وان كانت صورة سلبية بالنسبة لذاتها . فما دمنا نفهم الفشل من خلال النكسة ، فان ايماننا سوف يبقى قائما بالثورية ذاتها . لان الفشل ليس هو النهاية في العلاقات الجدلية بل هو المرحلة الضرورية لايضاح القيم الموضوعية لمرحل النجاح السابقة ، والكشف عن عوامل الفشل في صلب تكوينها ذاته .

كل هذا يجعلنا نثق في ان وجود النكسة هو من صلب وجود الثورية نفسها ، وليس نقيضا له . بل ان مناقضته له عامل بناء لانه سوف يجعل الثورية تنتبه لمستويات اعظم في المناضلة والمواجهة الحاسمة .

والنكسة لا تتوجه الى صميم الدفق الثوري ، بل الى الاسلوب العملي لتحقيق هذا الدفق في مواقف معينة . ولكن خطر النكسة يتعظم عندما تجهض النكسة نتيجتها المرتقبة وهي اعادة النظر . وتقع عملية الاجهاض حين تشبث الثورة بوثوقيتها القديمة ، اي بتعلقها شبه الفبي بمنطقها القديم ووسائلها التي اعتادت عليها وافتها لدرجة ان تعذر عليها تقدير مدى نجوعها او عقمها .

والمشكلة فعلا بالنسبة للوضع الراهن للثورية العربية انها تتحرك نفسها لعفوية الحركة التاريخية ، وتعتمد اهمال الرؤية الداخلية التي تتطلب ارادة الوعي الشامل لتدركات الثورية ولتناقضها في مخطط الواقع الفاسد . فان العجز عن مد الثورية بالتوعية النظرية ، لا يقل عن العجز الذي تجابهه هذه الثورية تجاه النظريات الايدولوجية الجاهزة قبلها .

وهكذا فلا تعيد الحركة الجدلية الثورة ، ولا ينتشلها من عثرتها في النكسة الا الوعي الحقيقي الموضوعي بكلية البنية النظرية للثورة . ولكي يكون هذا الوعي ملتزما حقا ونايما عن حاجات الثورة نفسها فانه يحدد فعاليتها باطار اعادة النظر ، اي في هذا الموقف النقدي الاصيل لقيمة الاسس التي انبثق عنها العمل الثوري .

ان اعادة النظر مطالبة اولا بتحليل القوى الدفاعية التي يتحصن بها الفشل ، والتي تحاول ان تثبت النكسة وتجعلها مستقلة عن جدلية الثورة . وان من أبرز هذه القوى الدفاعية ، قوة الوثوق ذاتها في عقلية الثورة ضمن مراحلها السابقة . واعني بقوة الوثوق ذلك الايمان شبه الفبي والساذج لجملة الشعارات والاهداف التي اطلقت الحركات الاولى للثورة .

وعندما يتحقق موقف اعادة النظر فانه سيحول النكسة من فشل

ومن نتائج إعادة النظر ، في الوسط السلبي للنكسة ، ان الثورة القومية ستلتقي مع عناصر الثورات الواقعية الكامنة في البنى الاعمق لكيان المجتمع العربي . وهذا ما سيكشف صفوفاً جديدة من العقبات لم تكن الثورة القومية قادرة من قبل على اعطائها حقها من الخطر والاهمية .

ان الثورة القومية من حيث انها تتجه الى بناء المستقبل فانها بطبيعتها تهمل تقدير الجماعيات التاريخية التي أدت الى انشاء الوجه الحالي لكيان الواقع . ومن هذه الجماعيات التاريخية تبرز البنية النفسية وهي في جدليتها اليومية ، والبنى الطبقيّة والانقسامات الزمنة في قطاعات العقائد والمقاييس الاخلاقية .

ولذلك فان لحظة التوقف تتيح لموقف إعادة النظر ان يعطي حضوراً مادياً لماضي هذه الجماعيات التاريخية . وبذلك يتم التجميع التاريخي في وحدة الجدلية الثورية والتجميع الشاقولي لمختلف العناصر السلبية الداخلة في تركيب بنية الواقع الفاسد .

فالنكسة تعطي حياة موقنة لعقد الواقع الفاسد . وبدلاً من أن يظل هذا الواقع الفاسد يمارس ايحاء مجرداً ضد الوجدان الثوري ، فان النكسة تكثف مصادر الفساد ، وتتركز المقاومة حولها .

وكذلك فان إعادة النظر تدفع بمصادر هذا الفساد الى قلب الحركة الجدلية بعد ان اهملتها هذه الحركة في مراحلها السابقة وجعلتها تتابع سلبيتها الصامتة وهي على هامش الثورة . ولكن النكسة التي تشبث بها العناصر السلبية كوسيلة لاستمرارها هي التي ستؤدي بها الى دوامة التصفية ، حيث ستلعب دورها الاخير ، ولن يكون هذا الدور الا القضاء على نفسها .

ومن نتائج اصطدام الثورة بلحظة النكسة أيضاً تلك الانقسامات الضرورية والطبيعية التي ستنتجها اليها القوى الثورية موقناً . فالانقسام هو التعبير العامي عن عملية التصفية التي تقوم بها الثورة في حركتها الجدلية ضد نفسها وضد عقباتها في الآن الواحد .

واصحاب الوجدان السكوني من الثورين ، هؤلاء الذين حذرتهم الوثوقية الاولى ، يخشون من الانقسام ، ويصتبرونه صورة عملية من صور الهزيمة .

ولكن هذا الانقسام ليس سوى بداية انتصار الثورة وهي تباشر مجدداً عملية التصفية الشاملة . أي ان الانقسام هو المردود الواقعي للنكسة بالنسبة للثورة . فلولا هذا الانقسام لما أثمر موقف إعادة النظر ولظلت الثورة مخدوعة برصيدها من القوى الثائرة بين صفوفها .

* *

ليست النكسة اذن هزيمة نهائية الا عندما تجهض إعادة النظر كنتيجة لانتصار العقيدة على نفسها . واذا كان للمنهزمين من مسؤولية امام ذواتهم ، فانها مسؤولية المواجهة الشاملة لاسس المعركة النضالية ككل .

اننا نسمي ذلك في لفتنا اليومية بالدروس التي نخرج بها الثورة اثر كل معركة من معاركها . ولكن لا قيمة لهذه الدروس حقاً ان لم تكن الفائدة العملية المترتبة عليها تساوي الفائدة النظرية او تتفوق عليها . وليست هذه الفائدة الا ان نجعل وعينا ثورتنا جديلاً حقاً كما هو واقع هذه الثورة في انتصاراتها وفي نكساتها . بذلك وحده يمكن ان تلعب ارادتنا الانسانية في هذه الثورة دورها الاساسي المسؤول الى جانب الارادة التاريخية والظروف الموضوعية التي تجعل من ثورتنا حتمية حقيقية ، كأعلى وأنبيل حتمية في حياتنا .

مطاع صفدي

دشمنق

إصم نهائي الى عملية تصفية جذرية . فالعناصر السلبية التي لم تقدر المراحل السابقة من الثورة ان تواجهها الا بصورة متجانسة لا تميز فيها ، سوف تبرز الان ضمن أقصى ظرف في عداوتها للثورة . وهذا البروز الذروي هو الذي سيساعد على كشف هذه العناصر ، في الوقت الذي تعتقد انها قد اكتسحت ساحة المعركة وسادت خطوطها كلها .

وهكذا فان الثورة بدلاً من ان تتابع نضالاً نظرياً ضد شعاعات سلبية عامة ، فانها سوف تصطدم بالرصيد الواقعي لكل شعار منها . وعندئذ لا بد ان يؤذن هذا الاصطدام بتفتح امكانيات نضالية تصف بالحذر والتدقيق العلمي والتخصص في توجيه عمليات التصفية . ولعل الثورة التي تصف بالثورة القومية ، هي اكثر الثورات تعرضاً للنكسات ما دامت تخوض معارك مثالية تتجاوز مشكلات التنظيم الثوري ، وتتجاوز في الوقت نفسه ، حسها الواقعي في تقدير القوى المناوئة .

ولذلك كان من نتائج النكسة حقاً ، ان تنتقل الثورة القومية الى دور تفصيلي ، الى دور يميز الملامح الحقيقية لنوعيات المشكلات المطروحة على بساط النضال اليومي .

ولن تكون هذه المشكلات الا جماعيات تاريخية لا تعالج بمنطق مباشر يكفي بالحل السياسي . فالحل السياسي هو النتيجة الاخيرة الحاسمة لذروة في الصراع الجدلي . اذ لا بد اولاً من كشف الحدود المتناقضة في جماعيات العقبات ذاتها ، لان التهديم الخارجي لن يزيدها الا تماسكاً داخلياً . ولا بأس من لحظة التوقف ، التي تعيد شيئاً من حرية النمو المطمئن الى هذه الجماعيات ، التي لا تلبث حتى تصادم اطرافها . ويتحول موتها البطيء الكامن فيها ، الى موت فعال .

ان التناقضات الذاتية في الجماعيات السلبية هو الذي يقرب الهبة التاريخية الفاصلة ، التي فيها تنقلب النكسة الى أصلها الثوري ، بقوة العوامل المثبتة للنكسة ذاتها .

مجموعات « الاداب »

لدى الإدارة عدد محدود من مجموعات السنوات التسع الاولى من الاداب تباع كما يلي :

ل.ل	ل.ل	ل.ل	ل.ل
١٥٠	(مجلدة)	١٩٥٣	السنة الاولى
٤٠	(بدون تجلید)	١٩٥٤	السنة الثانية
»	»	١٩٥٥	السنة الثالثة
»	»	١٩٥٦	السنة الرابعة
»	»	١٩٥٧	السنة الخامسة
»	»	١٩٥٨	السنة السادسة
»	»	١٩٥٩	السنة السابعة
»	»	١٩٦٠	السنة الثامنة
»	»	١٩٦١	السنة التاسعة